لا كفن وأدب عالميين كالفن والأدب الغربيين، بل كفن وأدب فولكلوري – مصري، هندي، فلسطيني، أو ما هو أكثر عنصرية، «أفريقي»).
إذاً، انحسار الفكر الوحدوي في وجه الإمبريالية والرأسمالية أدى إلى تحالفات أوسع، ليس فقط بين البورجوازيات الكمبرادورية التي تعاونت مع الاستعمار قبل الاستقلال وبعده، لكن أيضاً بين قسم كبير من المثقفين والفنانين والنشطاء السياسيين في العالم الثالث (الذين كانوا في أغلبهم في طليعة المناهضين للإمبريالية قبل سقوط الاتحاد السوفياتي) مع نظرائهم في الغرب الإمبريالي. وهنا يجب التشديد على أن احتواء النشطاء السياسيين حوّلهم إلى موظفين في المنظمات غير الحكومية، وإن كانوا يدّعون زوراً وبهتاناً بأنهم لا يزالون نشطاء، وهو زعم يهدف إلى التمويه والتغطية على الدور الإمبريالي الذي يلعبونه.
في غياب حركات وحدوية (بمعنى أنها حركات تعي أن ما يعانيه الفقراء المصريون هو ما يعانيه فقراء البرازيل وفقراء الهند وفقراء المغرب، وفقراء المكسيك، وفقراء جنوب أفريقيا، إلخ، وأن المسؤول عن هذا الفقر هو الطرف نفسه والبنية الاقتصادية نفسها) ترتكز في أولوياتها على محاربة إفقار معظم شعوب الأرض على يد حفنة من الملياردیرات تحميها الدول الإمبريالية وجيش عرمرم من المثقفين وصانعو الرأي في وسائل الإعلام أنتجتهم بنية اقتصادية وسياسية واجتماعية جعلت كل هذا ممكناً، سيكون من الصعب على أي مقاومة أن تقف بالمرصاد لهذا الظلم. وهنا يتم طمس دور الشيوعية والاتحاد السوفياتي في القرن العشرين (ولا سيما من قبل الليبراليين الذين يطرح بعضهم أنفسهم على أنهم مناهضون لرأسمالية منفلتة ويطالبون بإصلاحها) أو حتى بأنها كانت قد كوّنت التحدي الأقوى للقوى الرأسمالية وحددت معالم كل أحداث القرن، ويذكروننا بضحايا الأنظمة الشيوعية، الحقيقيين منهم والمُتخيّلين (فمثلاً علينا أن نتضامن مع ملّاك الأراضي الذين أرادوا تجويع المدن السوفياتية في أواخر العشرينيات، ما اضطر النظام إلى الاستحواذ على محاصيلهم بالقوة ومنع مجاعة وشيكة، بنفس المقدار الذي نتضامن فيه مع عشرات الآلاف من الشيوعيين الذين عمد ستالين الى قتلهم في عملية التطهير المخيفة الذي قام بها في أواخر الثلاثينيات داخل الحزب الشيوعي وفي مؤسسات الدولة)، من دون أن يذكروا ضحايا الإمبريالية الليبرالية منذ أواخر القرن الثامن عشر التي لا مجال لمقارنة أعدادها الهائلة بالأرقام الحقيقية ولا المتخيلة لـ«ضحايا» الأنظمة الشيوعية. أحدث مثال على هذه المنظومة الدعائية هو التغطية الإعلامية المعادية للاشتراكية في فنزويلا، حيث يتم التعتيم على ضحايا الإرهاب الموالي للولايات المتحدة والذي يستهدف نظام الرئيس مادورو ويضخّم حجم «ضحايا» النظام بشكل خيالي.

■ تكلّمت، في كتابيك الأخيرين، عن تطوّر مراحل الهيمنة الليبرالية وتأثيرها على الهويّة وثقافة الحقوق ومفهوم السياسة، وانتقدت ما اعتبرته «أجندة امبريالية» في دول الجنوب، تنشرها منظّمات مدعومة من الحكومات الغربيّة وتعمل على قضايا مثل الهويّة والحوكمة والمساواة بين الجنسين، وأنت تقول إنّ هذه المنظّمات تسعى الى تحويل قيم غربيّة، منبثقة من ثقافة الطبقى الوسطى في اميركا، الى قيم كونيّة وفرضها على العالم. لماذا تعتبر أنَّ هذه المفاهيم (عن الجنسانية أو الحوكمة أو الديمقراطية أو الحقوق الشخصية) لا يمكن «الاستحواذ» عليها وأن تكون جزءاً من أجندة تحرّر ومساواة في المستقبل؟ لماذا علينا أن نفهم هذه الثقافة والقيم، بغض النظر عن مصدر نشأتها، على أنّها مرتبطةٌ حكماً بالمشروع الاقتصادي

> في غياب حركات وحدوية سيكون من الصعب على أي مقاومة أن تقف بالمرصاد لهذا الظلم

الرأسمالي والتوسّع السياسي الغربي؟

كما أشرت في كتابي الأخير، الإسلام في الليبرالية، إن الفكر والحركات التي تطالب بمقاومة اضطهاد المرأة والتمييز ضدها ليست محصورة بالفكر الليبرالي ولا في أجندة المنظمات غير الحكومية التي انتشرت منذ الثمانينيات، بل تسبقها بقرن كامل على الأقل. فما يسوّق على أنه تحرير المرأة اليوم من قبل هذه المنظمات والمروّجين المحليين لها ليس بجديد، بل هو مرتبط بحركات تشبهها رعتها الكولونيالية منذ أواخر القرن التاسع عشر وتواطأ معها الكثير من المثقفين الليبراليين حينها، لكن معظم الحركات النسائية في بلادنا، وبلاد العالم الثالث بشكل عام، قاومت هذه الأجندة منذ العشرينيات وطرحت مشاريع أخرى لإنهاء اضطهاد المرأة من قبل الاستعمار والبطريركية العالمية والمحلية والرأسمالية. وقد حافظت الحركات النسائية في عالمنا على نهجها هذا المناوئ للأفكار الليبرالية حتى الثمانينيات. وكان الاتحاد السوفياتي (الذي، كما أبيّن في كتابي الأخير، اتبع في العشرينيات نهجاً استشراقياً في التعامل مع المسلمين السوفيات، ولا سيما مع المرأة السوفياتية المسلمة، وإن كان تبنّى صيغة اشتراكية لتحرير نساء العالم الثالث، بما فيه النساء المسلمات بعد الخمسينيات) ودول أوروبا الشرقية ومنظماتها النسائية حلفاء مركزيين للحركات النسائية في العالم الثالث المناوئة لليبرالية الإمبريالية ورفض الأخيرة للفكر النسوي الليبرالي. كانت الأمم المتحدة هي المنبر الأهم لهذا النزاع، خصوصاً في المؤتمرات التي عقدت منذ عام 1975 حتى 1995 وما بعد للنظر في هذه المسألة. لكن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وتفشّي الفكر الليبرالي والاقتصاد النيوليبرالي، انهارت المنظمات المناهضة للنسوية الليبرالية أو تم احتواؤها، وتحولت أهم ناشطاتها إلى مديرات لمنظمات غير حكومية تدرّ عليهن أرباحاً ويقمن بالتسويق للفكر الليبرالي، غير آبهات بعدم جدواه في تحرير النساء ككل بل مُركّزات على مقدرته على «تحرير» بعض النساء، دون أن يذكرن أن بعض النساء قد تم «تحريرهن» على حساب أكثرية النساء. وها نحن بعد ربع قرن على الأقل منذ إنشاء هذه المنظمات نجد أنفسنا أمام استمرار وتعزيز الاضطهاد لمعظم النساء على جميع المستويات، مع تحرير جزئي لنساء الطبقات العليا المستفيدة من النيوليبرالية، كما تبين الكثير من الدراسات النسوية، لا سيما عن نساء الولايات المتحدة وأوروبا، وليس فقط نساء العالم الثالث. إذاً المشكلة في هذه الأجندة الإمبريالية التي تدّعي أن من يناهض المنظمات والأجندة النسوية الأميركية الليبرالية هو كاره للنساء وجنسوي ومعاد للمرأة، والتي تشبه الدعاية الصهيونية التي تزعم أن من يعادي الأجندة الصهيونية لاسامي ومعاد لليهود؛ وهذا ما ينطبق أيضاً على المروّجين للهويات المثلية الغربية حول العالم وأجنداتهم الإمبريالية، حيث يَصمون من يقاومهم برهاب المثلية والفكر الجنسي المحافظ، بينما هم من ينادون بتحديد العلاقات الجنسية واللذة الجنسية والممارسات الجنسية بهويات ينبغي على ممارسيها تبنّيها وينبغي على الدولة النيوليبرالية تقنينها. نحن أمام هجمة شرسة هي جزء من دعاية عالمية تختزل التحليل والفكر بشعارات سطحية واهية يتبناها ليبراليونا على أنها قمة العمق والتحليل الفكري والمفاهيمي، وهذا ما يدخلنا في عالم أورويل، حيث تصبح سيطرة الدولة والقانون والمجتمع والمنظمات غير الحكومية على اللذة الجنسية وفرضها الهوّيات الجنسية على كل من يمارس الجنس تحريراً من القمع! هنا نجد أيضاً أن الثورة الروسية أخفقت في استنباط فكر جنسي تحريري في العشرينيات. فبينما ألغت الثورة على الفور القوانين التي جرّمت العلاقات المثلية الجنسية في المناطق الأوروبية من الاتحاد (قام ستالين بإعادة تجريمها في عام 1934)، قامت بتجريم هذه العلاقات في المناطق الآسيوية ذات الأغلبية المسلمة على أنها قائمة بين رجال راشدين ومراهقين. نجد رديفاً لهذه الأجندة الاستشراقية اليوم في التغطية الإعلامية الغربية لأفغانستان، حيث يقوم الأمميون المثليون، كما سمّيتهم في كتابي اشتهاء العرب، بالتنديد بالتجريم القانوني الأفغاني للعلاقات المثلية التي تحاكي النموذج الغربي ويطالبون في الوقت نفسه بتجريم العلاقات المثلية بين الرجال والمراهقين. في هذا السياق، يتضح أن نموذج الحريات الجنسية الذي يسوّقه الغرب ومنظماته في بلادنا يرتكز على مفهوم غربي من الحرية يعتمد سن الرشد على أنه سن الرشد المعتمد غربياً، ويُفرض علينا على أنه سن الرشد العالمي، وهو ما ينطبق مثلاً على إصرار هذه المؤسسات على عدم تزويج «الأطفال» لـ«راشدين» (حيث يتبع مفهوم الطفل والراشد أيضاً النموذج الغربي). فمثلاً يصبح من المستحيل على ابن الثالثة عشرة وابنة الثالثة عشرة أن يتزوجا، لكن من الممكن أن تتزوج ابنة الثامنة عشرة من ثماني، على مبدأ أن زواج الأوّلين ظلم للأطفال أما زواج الأخيرين فباختيارهما! تفوح المغالطات والتناقضات من هذا الفكر الذي يدّعي أنه يسعى لرفع الغبن عن الناس، بينما يطالب الدولة وآلياتها القمعية بعقاب من يشذّ عن القاعدة الغربية للعلاقات والهويات الجنسية أشد عقاب.

لو استيقظ لينين...

وسام متى

لنفترض أن شابين أرثوذكسيين متشددين قرّرا تكرار تجربة جنونية، حاول شابان آخران، من المعسكر ذاته، القيام بها قبل عامين، فذهبا إلى الكنيسة، وأخذا ماءً مقدساً، واخترقا حواجز «الغرانيت» التي تطوق ضريح لينين في الساحة الحمراء، ثم رشّاه بها، وصرخاً «انهض واذهب»، ولاذا بالفرار.
ولنفترض أنه، لسبب مجهول - وفوق كلّ ذي علم عليم - انتصرت «الميتافيزيقا» على المادية، وأدت التعويذة فعلها، تماماً كأفلام الخيال العلمي، مثل «ليلة في المتحف» أو «الحرب العالمية الثالثة»!
ستدق أجراس الكرملين، كالعادة، عند منتصف الليل، وسينهض قائد الثورة البلشفية من سريره، داخل الضريح، ويبدأ التفكير «جدلياً» في سبب وجوده في هذا المكان:
«هل أنا حي أم ميت؟ لو أنني توفيت لنفّذ الرفاق وصيتي بأن أوارى الثرى في مسقط رأسي! إذاً، ما زلت على قيد الحياة، ولربما أُوجَد حالياً في عيادة طبية خاصة، بعدما ألمّ بي الداء».
يبحث لينين عن قبعته فلا يجدها. يخرج مباشرة من المكان المغلق، ليجد نفسه في الساحة الحمراء: «لقد تغيرت معالمها كثيراً».
يقع نظره على نجمات حمراء خمس تعلو أبراج الكرملين، فيشعر بسعادة غامرة: «لقد نفذ الرفاق وصيتي بأن أزالوا رموز النظام القيصري البائد»، لكنه سرعان ما يفاجأ بمجسمات مذهّبة لنسور ذات رأسين تعلو الأبراج الأخرى. بعصبية شديدة يصرخ: «هذا تقصير لا يمكن أن تسمح به الثورة! أين الرفيق ستالين؟!».
يهرع لينين للبحث عن رفاق الثورة، فتنبئه العبارات المخطوطة عند قاعدة تماثيل لهم، بأنهم رحلوا. يحبس دموعه، وهو يتمتم: «يبدو أنني أطلت السبات... لأذهب وأرى ما حل بروسيا وثورتنا». يتوجه مباشرة إلى مجمع «غوم» للتسوق، الذي سبق أن أمّمته الثورة في إطار الخطة الاقتصادية الجديدة - «نيب».
يستوقفه أحد الحراس ممازحاً: «أما زلت هنا يا رفيق؟ لقد مضى السياح إلى حياتهم الليلية... فمن الذي سيلتقط صوراً ذاتية معك في هذه الليلة الباردة؟».
يبادر لينين الحارس بأمر صارم لكي «يفسح له الطريق للدخول إلى مركز التسوّق»، فيرمقه الأخير بنظرة ساخرة، قبل أن يجيب بغضب: «وهل أنت قادر على التضحية بآلاف الروبلات؟!».
سرعان ما يشعر الحارس بتأنيب الضمير لمخاطبته هذا الرجل المسكين بتلك اللهجة العدائية: «اسمع يا صديقي؟ لقد مر ذلك الزمن الجميل الذي كان فيه الـ(غوم) للبروليتاريا... هذا المكان بات للبرجوازية».

(وسام متى)

يردّ لينين، كمن وقعت الصاعقة على رأسه: «ألم تقضِ الثورة على البرجوازيين؟! هذا انحراف أيديولوجي خطير ينبغي أن نعالجه في المؤتمر العام للحزب!». يبدي الحارس عجزاً في التعامل مع ذلك «المجنون» المسكون بزمن ولّى.
يغادر لينين الساحة الحمراء لرصد مظاهر الانحرافات الأيديولوجية الأخرى، لكي يقدمها في تقرير إلى اللجنة المركزية.
لا يخفي قائد الثورة إعجابه بمظاهر الازدهار الذي حلّ على موسكو، فيهتف باستمرار: «لقد أحسن الرفاق صنعاً بثورتنا واقتصادها!».
تشرق شمس موسكو، فيهمّ لينين للحصول على نسخة من صحيفة «برافدا»، وبطبيعة الحال مطبوعات أخرى. ينكب، كعادته على قراءة الصفحات الاقتصادية، فلا يحتاج إلى جهد كبير، ليدرك أخيراً أن الرأسمالية قد انتصرت!
يسرع خطواته مجدداً باتجاه الساحة الحمراء، فيفاجأ بشبيه له، يلتقط له السياح صوراً، مقابل مئة أو مئتين أو ربما خمسمئة روبل.
«ماذا تفعل أيها الأفّاق؟!» يصرخ لينين، فيجيب الرجل: «هذا مكان وجودي الدائم... اذهب أنت إلى الناحية الثانية فثمة عدد لا بأس به من السياح».
بعد جدل مطول، يعرض الرجل حلاً وسطاً: «فلنعمل معاً في الساحة الحمراء ومحيطها، ونتقاسم المال بالتساوي».
«وما تقديرك للدخل اليومي؟» يسأل لينين، فيجيب الرجل: «بإمكاننا أن نجني سوياً 20 ألف روبل يومياً!».
يمضي لينين، ليشق طريقه نحو مركز شرطة «كيتاي غوراد»، وهو يتمتم، وعلى وجهه ابتسامة ماكرة: «عليَّ أن أدخله السجن... عشرين ألف روبل مقسومة على واحد، أفضل بالتأكيد من عشرين ألف روبل مقسومة على اثنين»!